

مبدأ التعقيد عند "بيير تيار دو شاردان"

The principe of complexity according to Pierre Teilhard De Chardin

ثيلاي سناسل¹، عمر مهيبل²¹ مخبر الدراسات الفلسفية وإكسيولوجيا جامعة أبو القاسم سعد الله – جامعة الجزائر 2 (الجزائر)

thileli.snacel@univ-alger2.dz

² جامعة أبو القاسم سعد الله – جامعة الجزائر 2 (الجزائر)،

omar.mehibel@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/23 تاريخ القبول: 2024/09/09 تاريخ النشر: 2024/10/01

ملخص:

نسعى من خلال هذا البحث مناقشة معنى التعقيد عند الفيلسوف "بيير تيار دو شاردان" (1881-1955)، والذي يُعد مفهومًا مركزيًا في فكره وخاصية رئيسية للكون بصفة عامة، ولأنه يرى -من ناحية أخرى- أنّ الوعي الإنساني يمثل قمة هذا التطور المعقد.

وقبل الخوض في فلسفة "بيير تيار دو شاردان"، يجدر بنا توضيح تصوّره للكون، للحياة وللإنسان وفق مبدأ التطور المعقد؛ بوصفه عملية ديناميكية للتعقيد المتنامي الذي ينطلق من المادة الجامدة إلى المادّة الحيّة، وصولاً إلى الوعي الإنساني الذي يسمّيه "التوسفير"؛ وأخيرا، من "التوسفير" إلى مجال الوحدة، لأنّ غاية التعقيد من وجهة نظره ترتبط بفكرة التقارب أو الاتجاه إلى القوة الموحدة الموجهة للتطور نحو حالة الوحدة التي يسمّيها "نقطة أوميغا".

كلمات مفتاحية: بيير تيار دو شاردان، التعقيد، الوعي، التطور، التوسفير، نقطة أوميغا.

Abstract:

We are seeking throughout this research to discuss the meaning of complexity according to the philosopher Pierre Teilhard de Chardin (1881-1955). Indeed, complexity is a central concept to his thought and a major characteristic of the universe as a whole. On the other hand, the philosopher believes that human consciousness represents the pinnacle of this complex development.

However, and before dealing with the philosophy of Pierre Teilhard de Chardin, we believe that we shall first explain his vision of the universe, of life, and of man according to the principle of complex evolution.

In fact, de Chardin characterizes evolution as the dynamic process of the growing complexity that has its roots in the static matter and extends to the living matter which leads to the human consciousness, that he calls 'no sphere field'. This letter is finally directed to the field of unity, since, according to him, the aim of complexity is linked to the idea of

convergence or to the move toward a unifying force that is directed to a state of unification that he calls "the Omega Point."

Keywords: Pierre Teilhard de Chardin, complexity, conscious, evolution, noosphere, omega point

*المؤلف المرسل: ثيلاي سناسل

مقدمة:

يعدّ البحث في أصل الكون والحياة موضوعاً مركزياً عند الفلاسفة والعلماء على حد سواء، فهو لا يرتبط بحقبة زمنية دون سواها وفق ما تقدّمه لنا الدّراسات التاريخيّة الأنثروبولوجيّة، إذ في لحظة ما من التأمّل والتّحقيق، يمكن أن تتكوّن لدى الباحث الإرادة القويّة في تقديم تصور شامل للكون والحياة. ومن بين الذين يصدق عليهم هذا الوصف، نجد العالم الباليونتولوجي والجيولوجي "تيار دو شاردان" الذي حاول أن يقدّم رؤية كونية أصيلة وفق مقاربة منهجية للواقع من خلال التّأصيل لنظرية التّطور البيولوجي معتمداً في ذلك على تفسير الكون والحياة من خلال العناصر التي يتركب منها وربطها بالتّعقيد الكامن في المادة الكونية. وقد كانت لهذه المقاربة أثر بالغ -فيما بعد- على العديد من التّيارات العلميّة والفلسفة التي حاولت تطوير ما يُطلق عليه اليوم بنموذج التّعقيد.

بناءً على ما سبق يمكن أن نطرح الإشكالية التّالية: إلى أيّ مدى يمكن القول بأن "تيار دو شاردان"

قد اقترح رؤية جديدة للكون وفق نموذج التّعقيد وما علاقته بالتّطور؟

1- مفهوم التّعقيد:

جاء مصطلح التّعقيد في موسوعة لالاند الفلسفية بمعنى "مركب". فهو يستخدم كـ "صفة" [مركّب، مُكثّف،

مُعقّد] في سياقات مختلفة:

- 1- في المفهوم العام: يشير إلى شيء يتألّف من عدّة عناصر أو يحتوي على عدد كبير من العناصر.
- 2- في المنطق: يستخدم مصطلح التّعقيد لوصف شيء ما إذا كانت الكلمة الرئيسيّة التي تصفه مصحوبة بتفسير أو تعيين.
- 3- في القضايا: يستخدم لوصف قضية معقدة عندما يكون الموضوع أو المحمول مركباً.
- 4- في القياس: يشير إلى القياس المركب حينما يكون حد نتيجة مركباً على الأقل، وتكون الأجزاء المكونة لها منفصلة في المقدمات.

ويستخدم التّعقيد كـ "اسم"؛ مجعّ، عقدة، [كثيف، مقابل لطيف؛ المعرّب] في عدّة سياقات؛

أولاً: تشكيل طبيعي أو منطقي: يشير المركّب إلى شيء يتألّف من عناصر متمايضة ومنظمة بعلاقات محدّدة، سواء

في النّسق الطّبيعي أو في المنطق.

ثانياً: في التّحليل النّفسي: مصطلح ابتكره يونغ ويشير إلى مجموعة من عناصر التّمثّل التي تتشكل داخل الفرد

وتنطوي على قوّة عاطفية.

مبدأ التعقيد عند "بيير تياردو شاردان"

ثالثاً: في الأعداد المركبة: يعرف العدد المركب مكون من عدّة أعداد (عملية التّجمع الحسابي)، حيث يفترض أنّ كل واحدة من هذه الأعداد متعلّقة بوحدة خاصّة تفترض أن يضاعفها.

رابعاً: في الأعداد الخيالية: يشير "لالاند" إلى الأعداد المركبة في الجبر العادي، حيث يعرف هذا النوع من الأعداد على أنّها تكون مركبة من وحدتين أساسيتين (أندريه، 2001).

وجاء في معجم الأكاديمية الفرنسي، معنى المعقد على أنه صفة، ومصطلح تعليمي مقابل لكلمة أفكار معقدة أو اقتراحات معقدة (Académie, 1978).

أمّا في المعجم الكبير، فقد تمّ تعريفه على أساس أن المعقد complexe، مشتق من الكلمة اللاتينية complexus التي تعني "احتضان، تسلسل" بالألمانية (Blay M., Le grand dictionnaire, 2003).

على كلّ لقد تم تناول مصطلح المعقد منذ الفترة ما قبل السقراطية، من أجل توضيح المبدأ الذي ينبثق منه كلّ شيء Appeiron, l'illimité، والمُنتج اللامتناهي للظواهر المتنوعة في الكون؛ لكن مع ظهور ما يُعرف بالبيولوجية الديكارتية أصبح المعقد مرتبطاً بمسألة التنظيم وترتيب الأجزاء المتشابكة في الكل (Blay M., 2003).

ومن الناحية الاستمولوجية، يطلق مصطلح التعقيد على كلّ ما يتكوّن من عناصر متميزة أو على النظام الذي يتكوّن من أجزاء ترتبط ببعضها البعض، ممّا يؤدي إلى ظهور مستويات مختلفة من تنظيم الظواهر.

بينما في فلسفة المعرفة: تعني الأفكار المعقدة تلك التي يصعب تحليلها إلى عناصر غير قابلة للاختزال (Blay, 2003).

وفي مجال الميكانيكا الكلاسيكية: يعارض المعقد البسيط من خلال تعدد أجزائه، ويُفهم تعقيد نظام السّوائل على أنّه تراكم لأنماط مستقلة. ولكن مع ظهور الفيزياء اللاخطية (اللامتناهية) Physique non linéaire قد أظهر تمييزاً قوياً بين "المعقد" و"المركب". فالمعقد le complexe هو ما لا يمكن اختزاله باتّحاد مكوناته، بينما يمكن اختزال النظام المركب. فالفيزياء اللامتناهية تكشف عن تمييز جوهري بين "المعقد" الذي لا يمكن اختزاله بسهولة وبين "المركب" الذي يمكن اختزاله بتوظيف الحساب (blay, 2003). فما مفهوم "التعقيد" عند "تيار دو شاردان"؟

2- مفهوم التعقيد عند تياردو شاردان:

التعقيد Complexification عند "تيار دو شاردان" يشير إلى اتّجاه المادة، في ظروف مواتية نحو بناء هياكل معقدة

وهذا ينتهي بتشكيل الكائنات الحيّة وظاهرة التّنشئة الاجتماعية Socialisation (Cuénot, 1963)

التي تمتد إلى بُعد كوني وتطوري. "التعقيد" كلمة مشتقة من اللاتينية Complexi بمعنى لفّ وأحاط Entourer، أو تضمّن واشتمل Embrasser، أو احتوى وحوى Contenir، بمعنى إنّه يحتوي على عدّة أجزاء أو عدّة عناصر مجمعة بطريقة غير واضحة تماماً للعقل، وفي بعض الأحيان يكون مرادفاً لـ De compliqué (adj et subs)، أي مألوف، متواتر، شائع ومتكرّر ومن مشتقاته عند "تيار دو شاردان": Complexification, Complexifier, Complexité- Conscience (Baudry, 2009).

ويتضح مفهوم "التعقيد" بشكل أدق في كتاباته المتعدّدة؛

ففي كتابه "مكانة الإنسان في الطبيعة"، بين بوضوح دور التنظيم في عملية التعقيد، بأنه لا يعني بمصطلح مجرد تجمع بسيط أو الجمع العشوائي لعناصر غير منظمة مثل كومة من الرمل، بل يشير إلى فكرة "التعقيد" كشيء أكثر تنظيماً وترابطاً، حيث يفضل تصوّره كترتيب معين للعناصر، يتجاوز التجمع العشوائي فالتجموع والكواكب قد تكون تجمعات من المادة على سبيل الذكر ولكن، حسب وجهة نظره، هذا التجمع لا يعبر بالضرورة عن مستوى عال من الترابط أو التنظيم. بالمقابل، عندما يتحدث عن "التعقيد"، يتناول فكرة الترتيب والترابط بين العناصر بشكل أكبر وأعمق، مما يعكس فهماً أعمق للتنظيم والتفاعل بين العناصر. يقول في هذا الشأن: "من خلال التعقيد، فيما يلي، لن أقصد بالطبع الدمج البسيط، بمعنى أيّا كان من تجميع العناصر غير منظمة: مثل كومة من الرمل، وحتى مثل (...) النجوم والكواكب." (Theilhard De Chardin, 1965)

ولا يستخدم مصطلح "التعقيد" بمعنى التكرار البسيط لوحداث هندسية بشكل غير محدّد مثلما يحدث في عملية التبلور الهندسي حيث يتم تكرار نفس النمط الهندسي، هذا ما يبرزه في قوله: "وهذا المصطلح، لن أعني أيضاً التكرار الهندسي البسيط، غير المحدّد للوحدات (مهما كانت هذه التنوعات، ومهما كانت متعددة محاور ترتيبها) — كما يحدث في ظاهرة التبلور الكوني المذهلة." (Theilhard De Chardin, 1965)

إذن عندما يحدثنا "تيار دو شاردان" عن "التعقيد" يقصد به تكامل العناصر بشكل معين ومتقدم، يشير إليه كتشكيل خاص ومتقدم للعناصر في مجموعة مغلقة ذات نطاق محدد: "لكن، تحت هذا التعبير، سأعني، بدقّة كبيرة، التنسيق، أي هذا الشكل الخاص والعالي للتجميع الذي يتولّى ربط عدد معين من العناصر (قليلة أو كثيرة، لا يهم) - بمساندة أو بدون بمساندة إضافية من الدمج والتكرار - في مجموعة مغلقة ذات نطاق محدّد: مثل الذرة، والجزيء، والخلية، والحيوان المتعدّد الخلايا، وما إلى ذلك." (Theilhard De Chardin, 1965)

وقد أدرك وجود فرقا جوهريا بين اندماج العناصر البسيطة والكائنات المعقّدة التي تتمتع بتكوين هيكلي مكتمل. ففي حالة التجمع والتبلور، يبقى الترتيب غير مكتمل دائما ويمكن إضافة مزيد من المواد من الخارج، على سبيل المثال، في الكواكب أو البلورات، لا يوجد أي أثر لوحدة محدّدة ذات طابع ذاتي. بعبارة أخرى: عندما يشير إلى التعقيد، يقصد تشكيل هيكل مكتمل ذاتيا في كلّ لحظة، والذي يمكن أن يمتد إلى ما لا نهاية من الداخل. هذا يعني وحدة "طبيعية" تظهر حدودا عضوية تجاه نفسها وفي نفس الوقت تظهر ظواهر محددة من الاستقلال عند مستويات تعقيد داخلية معينة، يقول: "ففي حالة الدمج والتبلور، يكون الترتيب بالطبيعة ويبقى في الغالب غير مكتمل خارجيا. ويمكن إضافة مزيد من المادة من الخارج. وبتعبير آخر، في الكوكب أو البلور، لا يوجد أي أثر لوحدة محدّدة بالنسبة لذاتها؛ لكن مجرد ظهور لنسق محاط بالصّدف." (Theilhard De Chardin, 1965)

وفي كتابه "رؤيا الماضي La Vision Du Passé" تساءل "تيار دو شاردان" عن معنى التعقيد قائلا: قبل كل شيء ما الذي أعنيه بالتعقيد؟ ليجيب لاحقا: "بواسطة تعقيد المجموعة، لا أعني فقط عدد وتنوع العناصر في العناصر التي تشكل هذه المجموعة ولكنني أفكر أكثر في ترتيبها. فإذا كانت مشتركة بدون ترتيب، فإنّ الثلاثمائة والستون نوعا من

مبدأ التعقيد عند "بيير تيار دو شاردان"

النّوى الذريّة المعترف بها حاليا من قبل الفيزياء، من الهيدروجين إلى اليورانيوم، سيكون تشكيلا متنوعا، وليس تعقيدا. فيما أعنيه هنا، إنّ التعقيد هو لا تجانس منظم-وبالتّالي مُمرّكز. وبهذا المعنى، فكوكب ما غير متجانس، لكنّه غير معقّد. - إذن، إنّ عاملان أو مصطلحان مختلفان هما ضروريين لترجمة تعقيد نظام: يعبر الأول عن عدد العناصر ومجموعات العناصر المحتوات في النّظام؛ الآخر، وهو أصعب بكثير للتّصور، يعبر عن العدد والتنوع وتقارب الرّوابط (الكثافة) الموجودة بين هذه العناصر تحت حد أدنى من الحجم (Thielhard De Chardin, 1957).

Chardin, 1957)

من خلال هذا النص يبين "تيار دو شاردان" معنى "التّعقيد" من خلال التّمييز بين مجرّد التّنوع أو التّشكيل العشوائي وبين التّرتيب المنظم والمركّز. يرى أنّ عناصر النّظام حتّى لو كانت متنوعة، إذا لم تكن منظمة بطريقة مركّزة فإنّها لا تشكل تعقيدا. بعبارة أخرى: التعقيد لا يعتمد فقط على تنوّع العناصر بل يعتمد أيضا على تنظيمها وترتيبها بطريقة تجعلها مترابطة بشكل مركّز. ويركّز "تيار دو شاردان" على فكرة أنّ التعقيد يتطلّب ترتيبا مرنا ومنظما للعناصر، وهذا يشير إلى مفهوم أعمق للتّرابط والتنظيم في النّظم الطّبيعية.

إذن التعقيد عند "تيار دو شاردان" لا ينشأ من التّناظر الخارجي، وإنّما: "ينبعث منه تدريجيا" مركزية" معينة ليست تناظرية بل فعلية يمكن أن نطلق عليها التّركيز الممرّكز Centro-complexité للاختصار والتّوضيح". (Theilhard De Chardin, 1965)

وفي نفس السّياق، يصرّح في كتاب "تشغيل الطاقة Activation de l'énergie" عن هذه العلاقة بين التعقيد والتنظيم ليس فقط في نطاق المادة الجامدة -كما أسلفنا الذكر- وإنما يتجاوزها إلى المادّة الحيّة، على أنّ هذه الأخيرة أي الكائنات الحيّة المعقّدة تتكون من عناصر متعدّدة مترابطة بشكل متماسك ويركز على أهمية تنظيم هذه العناصر بشكل هيكلي ومركزي. إذ كلما كان هذا الأخير أكثر تعقيدا، فإنّه يتمكن من تشكيل نظام مركزي، وليتمكن من العيش والعمل، يشترط أن يكون هيكله المعقد منظما ومركزيا، وفي هذا الصّد يقول: "إنّ المتحدّث عن "التّعقيد" بالمعنى الحقيقي المعترف به للمادّة الحيّة، يقصد بالضرورة تعدد العناصر الموحدة، الهيكل الرّائع الذي يمثله أدنى جسيم متحرّك يشكل الجسيم بأكمله، وهذا يعني أنّه سينهار إلى الغبار إذا لم يكن مرتبا ومنظما إلى درجة ما لنظام حيوي؛ كلما كان أكثر تعقيدا، فلن يتمكن من البقاء أو العمل إذا لم يشكل نظاما مركزيا هيكليا (Theilhard De Chardin, 1963) un système centré Chardin, 1963) يقصد من قوله أنّ الهيكل الدّاخلي للكائنات الحيّة يجب أن يكون مرتبا بشكل نظامي ومتوازن، حيث يمثل كل جزء دورا مهما في وظيفة الكائن الحي -كل الكائنات الحيّة تحتاج إلى هذا التّنظيم الدّاخلي للبقاء والعمل بشكل فعال-.

ويرى "تيار دو شاردان" في كتابه "مستقبل الإنسان Avenir de l'Homme" أنّ التعقيد، يعني وجود عناصر أكثر في الشّيء وتنظيمها بشكل أفضل وأكثر ترتيبا. هذه الخصائص، حسب نظره، تمثل مستويات التعقيد للأشياء، حيث يصبح الشّيء أكثر تعقيدا كلما زاد عدد العناصر فيه وتنظيمها بشكل أفضل، يتوضح ذلك في قوله: "نقصد بواسطة

"تعقيد" الشيء إذا أردتم ذلك جيداً، هي الخاصية التي يتمتع بها هذا الشيء تسمح له بالتشكيل: 1- عدد أكبر من العناصر؛ 2- متسقة التنظيم فيما بينها اتساقاً بينها. (Theilhard De Chardin, 1959) ويضيف: "من هذا المنظور تعتبر الذرة أكثر تعقيداً من الإلكترون، والجزء أكثر تعقيداً من الذرة، والخلية الحية أكثر تعقيداً من أعلى النوى الكيميائية التي تحتوي عليها، والفارق بين مصطلح وآخر لا يعتمد فقط (أؤكد على ذلك) على عدد وتنوع العناصر المشمولة في كل حالة، بل على الأقل كذلك، على العدد والتنوع المناسب للروابط المتشابكة بين هذه العناصر. ليس مجرد تعدد بسيط إذن، بل تعدد منظم. ليس مجرد تعقيد: بل تعقيد مُركز. (Theilhard De Chardin, 1959)

يعني أنّ التعقيد ليس مجرد تراكم للعناصر، بل يتعلّق بتنظيم هذه العناصر وتواصلها بشكل منظم ومرتبطة. ويبين أنّ الشيء يصبح أكثر تعقيداً ليس عندما يزداد عدد العناصر المكونة له فحسب ولكن أيضاً عندما تزداد التفاعلات والروابط بين هذه العناصر بشكل منظم ومرتبطة، معبراً عن أهمية التنظيم والترتيب في تحديد مستوى التعقيد اللذان يساهمان في تشكيل الخصائص والسلوكيات المعقدة للأنظمة الحية.

3- الكون ثلاثي الأبعاد عند "تيلاردو شاردان"

يوضح "تيار دو شاردان" في كتابه "اتجاهات المستقبل Les Directions De L'Avenir" أنّ الفيزياء التقليدية تحصر العالم في محور واحد. تتناول الأبعاد من الصغيرة إلى الكبيرة. لكن بناء على مبدأ التعقيد، كشف "تيلاردو شاردان" وجود بعداً جديداً أسماه بـ "النهاية التعقيد" فالأجسام حولنا لا تكون صغيرة أو كبيرة بل بسيطة أو معقدة أيضاً، يقول: "أنّ الفيزياء كانت إلى حد الآن مبنية على اعتبار محور واحد في الكون، وهو الذي يرتفع من خلال الأبعاد المتوسطة (التي ننتمي إليها جسدياً)، من المتناهي الأصغر نحو المتناهي الأكبر ومن الطفيف إلى الشاسع." (Theilhard De Chardin, 1973)

ويضيف: "تقوم الفيزياء أيضاً باللعب على مقياسين لانهائيين فقط، ومع ذلك، هذا ليس كافياً لتغطية كلّ التجربة علمياً، فمن الضروري، برأيي، أن نعتبر الكون بمنظور "لانهائي" يشبه الآخرين في الواقعية: أعني المتعلّق بالتعقيد. إنّ الأجسام من حولنا ليست صغيرة فقط أو كبيرة. إنّها بسيطة أو معقدة أيضاً. وبين الحد الأبسط والحد الأكثر تعقيداً من الجزيئات التي نعرفها، يكون الفارق (...) بالمقدار نفسه الهائل بالضبط كما بين الأبعاد النجمية والأبعاد الذرية. لذا، يمكن الحديث في العلم بصرامة، وليس ميتافيزيقياً، عن "لانهائي ثالث"، يتكون من الصغير جداً في الهائل، على مستوى المتوسط: ما يتعلّق، أكرر، بالتعقيد." (Theilhard De Chardin, 1973)

يرى "تيار دو شاردان" أنّ المحور الذي يعرض الأحجام من الصغير إلى الكبير في الطبيعة ليس له أهمية خاصة في السياق الذي يقدمه إنّّه مجرد وسيلة لتمثيل الأشياء بشكل كمي بدءاً من الأصغر إلى الأكبر، ولا يقدم شيئاً محدداً أو مميزاً في نفسه ويبين وجود محورا ثانياً في فهم العالم إلى جانب البعد الفيزيائي، وهو محور التعقيد لهذا يعتقد أنّ على العلم أخذ في اعتباره مستوى التعقيد في الكائنات والظواهر بالإضافة إلى حجمها الفعلي لأنّه يسمح بفهم أعمق للظواهر الطبيعية وتفاعلاتها بالتالي يكون فهمنا للعالم أكثر شمولية وكمالاً. يقول: "شيء أولي يكشفه لنا هو مدى انتهاكنا لكوننا

مبدأ التّعقيد عند "بيير تياردو شاردارن"

إذا قصرناه على الكبير جدًا والصغير جدًا، أي لا نهايتين اللّتين ورثناهما عن باسكال حتّى إذا لم نأخذ في الاعتبار عمق الزمن -أي على شكل لحظة فورية من الكون- هناك لا نهاية ثالثة: هاوية التّعقيد. دعونا بدلا من ذلك نلقي نظرة أليست كافية لتعتبر كونها ضخمة بشكل كبير جدًا؟ لذا، الكون ليس منبئيا مكانيا فقط على لانهائيتين بل هو مبني على ثلاثة لانهيات (على الأقل)، الصّغير جدًا والكبير جدًا بالتأكيد، ولكن أيضا (جذوره متأصلة مثل الكبير جدًا في الصّغير جدًا، لكنّه يتفرع بعدها باتجاهه الخاص) التّعقيد بدرجة كبيرة. (Theilhard De Chardin, 1965)

نفهم في سياق حديث "تيلار دو شاردارن" أنّه لفهم حقيقة الكون لا يكون فقط من خلال الأبعاد الكبيرة والصّغيرة، ولكن أيضا من خلال العنصر الثالث وهو التعقيد. فهو يرى أن الكون يشكل نظاما متعدّد الأبعاد لا يمكن تحديده ببساطة من خلال الفرق بين الكبير والصّغير بل يتطلّب إلى جانب ذلك التّفكير في التّعقيد والتّنوع في تنظيم الكائنات والظواهر في الكون. فالكون بالنسبة لـ "تيلار دو شاردارن" ليس مجرد مجموعة من الأشياء الكبيرة والصّغيرة وإنّما يتألف كذلك من مجموعة كبيرة ومعقّدة من الهياكل والظواهر التي تختلف في مستويات التّنظيم والتّعقيد.

كما يهدف "تيار دو شاردارن" إلى تسليط الضّوء على تعقيد الكائنات الحية وأهميته في فهم الحياة بشكل عام حيث يسهم التّعقيد في توجيه البحث العلمي وفهم العمليات الحيوية، مما يساعد في تطوير الفهم العميق لطبيعة الحياة ومكانتها في الكون، وهو ما يعبر عنه بقوله: "لنرفع الآن أعيننا من اللامتناهي الصغير لنوجهما نحو مشهد آخر، من نوع آخر على ما يبدو. دعونا من الدّرات والسّدم، ولننظر، في محيط خط العرض المتوسط الخاص بنا latitude moyenne إلى المادة الحيّة". (Theilhard De Chardin, 1963)

وهكذا ينتقل "تيلار دو شاردارن" إلى الحديث عن الحياة وعلاقتها بمبدأ التّعقيد، حيث يقول: "ما يهم بالمقابل بالنسبة لموضوعي، هو ملاحظة أنّه فوق "المدوّنة" الشّاسعة من البيانات التجريبية المتراكمة مسبقا من قبل الفيزياء الحيوية والكيميائية الحيوية، هو بروز سيادة حدث شامل أكثر أهمية بالنسبة لذكائنا من أي حدث خاص آخر. أعني التّعقيد المذهل للكائنات المنظمة" (Theilhard De Chardin, 1963)

يظهر "تيار دو شاردارن" التعقيد والتّنظيم الهائل في الحياة والظواهر الحيوية على مستوى صغير جدًا وأنّ الأجسام الحية، بما في ذلك الفيروسات والبكتيريا والخلايا، تتكون من أجزاء صغيرة للغاية وتعمل بشكل معقد حتى على هذا المستوى الذري وأنّ الكون الواسع يظهر ترتيبا وتنظيما أيضا، أن هذا التّنظيم الهائل في الكائنات الحية يصل إلى مستويات كثافة هائلة، مما يبرز التعدد الفريد والمذهل للحياة (Theilhard De Chardin, 1963)

4-مبدأ التّعقيد وولادة الحياة

ساد اعتقاد لفترة طويلة أنّ عالم الحياة مختلف ماما عن عالم المادة الجامدة، فمن وجهة نظر الفيزيائيين، الحياة هي استثناء، شذوذ غريب، تزدهر بعيدا عنها. فهي ليست بالأهمية البالغة لفهم بنية الكون الأساسية. وبالمقابل جاء "تيلار دو شاردارن" ليؤكد أنّ الحياة ليست ظاهرة ثانوية بل هي خاصية كونية مميزة أو هي جوهر الظاهرة ذاتها.

لقد أثبتت التجربة العلمية اليوم أنّ الحياة ليست مجرد مزيج من العناصر الكيميائية فحسب وإنّما هي الهيئة التي تتخذها المادة على مستوى معيّن من التعقيد، وفي هذا الشأن يقول: "الحياة ليست شيئا آخر، بالنسبة للتجربة العلمية، سوى الأثر المحدّد للمادة المتفانية التعقيد (complexifiée): التي تتميز بخاصية التمدد مع النسيج الكوني بأكمله، يمكن فقط إدراكها بالنظراين (...) يكون التعقيد يتجاوز قيمة حرجة معينة لا يمكننا رؤية شيء بعدها من تحتها. فيجب أن تقترب سرعة الجسم من سرعة الضوء كي تتضح لنا الاختلافات الموجودة في كتلته. كما ينبغي أن تصل درجة حرارته إلى 500 درجة حتّى يبدأ إشعاعه في التأثير على أعيننا." (Theilhard De Chardin, 1965)

هذا أنّ الحياة خاصية متلازمة للتعقيد المتزايد للمادة الكونية. تنشأ عندما يصبح التعقيد الكيميائي والفيزيائي للمادة مرتفعا بما فيه الكفاية فمثلا يكون هناك حد أدنى للحرارة يجعل الشيء مرئيا للعين البشرية، يكون هناك حدا أدنى للتعقيد لجعل المادة تظهر كمظهر حيّ. (Theilhard De Chardin, 1965)

لذا فإنّ علم الأحياء لن يكون سوى "فيزياء التعقيد الكبير". (Theilhard De Chardin, 1965) على حد قول "تيار دو شاردان".

إنّ اللافت للانتباه؛ أن "تيار دو شاردان" يقرّ بوجود علاقة وطيدة بين البيولوجيا وعلم الفيزياء إلى درجة اعتباره كفيزياء للكائنات الحيّة المعقدة، موفرا بذلك تصنيفا طبيعيا ومرونة في فهم التنوع الحيوي وتوزيع الكائنات الحيّة من حولنا. وهذا يؤكّد على الترابط والتكامل بين العلمين لفهم شامل وكلّي للحياة والكون بصفة عامّة.

5- التعقيد والتطور:

تظافرت جهود "تيار دو شاردان" من أجل رصد العلاقة بين مبدأ التعقيد ومبدأ التطور إيمانا منه أن دراسة مفهوم التطور يبعث على تصوّر المستقبل الإنساني، حيث هناك ثلاث قوانين للتطور:

- القانون الأول: قانون التعقيد أو قانون التعقيد المتنامي (La loi de (Theilhard De Chardin, 1965) complexification ou de complexité croissante)

يقرّ أنّ المادة في بداية ظهورها كانت بسيطة جدّا، بعد ذلك بدأت في النمو وتنظيم نفسها شيئا فشيئا حتّى وصلت درجة معينة من التعقيد، ظهرت الحياة التي كانت ذروتها ظهور الإنسان. وبالعودة إلى مقياس المقادير الكونية وصعوده التدريجي من المستوى الأدنى على طول هذا المسار إلى أن تصبح الجسيمات المادية أكبر وأكبر. فإذا، سألنا "تيار دو شاردان": كيف تنمو؟ أجابنا: "تتجمع الذرات بشكل عضوي لتشكيل "تعقيدات" حقيقية، ولكن الطريقة هي من خلال الاندماج لتكوين جزيئات بسيطة، والجزيئات البسيطة إلى جزيئات فائقة، والجزيئات الفائقة إلى بنى خيوطية، وبنى خيوطية إلى خلايا حرّة، والخلايا إلى نباتات وحيوانات". (Thielhard De Chardin, 1957)

لم يظهر التعقيد في بداية الكون، بل بدأ في النشوء تدريجيا مع مرور الوقت من عملية تطور بطيئة بدايتها كانت تتعلق بجزيئات المادة (تكوين أو نشأة الكون)، ثم امتدت للكائنات الحيّة (النشوء الحيوي)، وأخيرا وصلت إلى الإنسان (التكوين البشري والتكوين الحيوي l'anthropogenèse et la noogenèse). لذلك نجد أن التطور يقدم نفسه بما هو

مبدأ التّعقيد عند "بيير تياردو شاردان"

عملية عظيمة تخص الزيادة في الحجم والتّعقيد التي تحدث من اللامتناهي في الصغر عبر الزمن. هذا هو قانون التعقيد complexification. (Giron, 2015)

يعني أنّ الكائنات والظواهر في الكون تتطور عن طريق التجمع والتكامل التدريجي. يشير إلى أنّ الجسيمات الأولية (الذرات) تتحد لتشكيل هياكل أكبر وأبعد، ويستخدم مصطلحات "تجمعات حقيقية" للدلالة على هذه الهياكل التي تنشأ من التفاعلات بين العناصر الدقيقة، على سبيل المثال؛ تتحد الذرات لتشكيل جزيئات بسيطة، وتتحد هذه الجزيئات لتشكيل جزيئات أكبر ومعقدة، وهكذا دواليك للإشارة إلى هياكل أكبر ومتقدمة، مثل الخلايا والنباتات والحيوانات مما يعني تشكيل الكائنات الحية والظواهر في الكون من خلال عمليات التكامل والتجمع مما يؤدي إلى تكوين هياكل تزيد من تعقيد وتنظيم الوجود في الكون.

ويبين "تيلار دو شاردان" قانون التّعقيد المتنامي كما يلي:

أولاً: يظهر في العدد الخام للجزيئات والمركبات الحيوية المختلفة المرتبطة بعضها ببعض على سبيل المثال: تحتوي البروتينات كالهيموغلوبين وصبغة الكبد الحمراء على أعداد هائلة من الجزيئات والذرات التي تتفاعل معاً بشكل معقد تؤدي وظائفها في الجسم فنفهم أن هذا النوع من التفاصيل المختلفة المتعلقة بالتركيب الجزيئي والأعداد الضخمة من الجزيئات كمحاولة لفهم مدى التعقيد والتنوع في الأنظمة الحيوية.

ثانياً: يظهر بعد ذلك، في تعقيد العمليات الحيوية والكيميائية في الكائنات الحية. فيشير "تيلار دو شاردان" إلى أنّ العناصر الكيميائية الموجودة في الكائنات الحية تتضمن تشكيلات متنوعة ومعقدة تعقيداً هائلاً في التركيب والتفاعلات الكيميائية التي تتجاوز قدرة الإنسان الحالية على التحليل والفهم.

ثالثاً: وأخيراً، يشير إلى أنّ الأجسام الحية بما في ذلك الفيروسات والبكتيريا والخلايا، تتكون من أجزاء صغيرة للغاية وتعمل بشكل معقد حتى على هذا المستوى الصغير وأنّ الكون الواسع يظهر ترتيباً وتنظيماً أيضاً، وأن هذا التنظيم الهائل في الكائنات الحية يصل إلى مستويات كثافة هائلة، مما يبرز التعقيد الفريد والمذهل للحياة. (Theilhard De Chardin, L'Activation de l'énergie, 1963)

وهكذا فإنّ المادة عند "تيلار دو شاردان" تخضع -منذ البداية- إلى القانون البيولوجي العظيم الذي حسب وجهة نظره يتعيّن العودة إليه باستمرار وهو قانون "التّعقيد". (Theilhard De Chardin, 1955) فالتّعقيد قانون فيزيائي بيولوجي، يرصد تطور الكون الذي يحكم تنظيم المادة من العنصر الصّغير والبسيط جداً إلى العنصر الكبير والمعقد جداً.

● القانون الثاني: يتمثل في قانون التعقيد/ الوعي La loi de complexité/conscience:

يقصد بـ قانون التعقيد-الوعي: "قانون تعاقب الظواهر في طريقها نحو التركيز؛ -يعبر عن الارتباط بين تقدم العلاقات المتزايدة والمتنوعة التي تربط عناصر النظام، وتقدم مظهر المركز النفسي. هذا القانون يسمح بترتيب الظواهر في اللانهاية الثالثة" (Baudry, 2009) بمعنى قانون يصف كيف تتعاقب الظواهر في تطورها نحو التركيز،

حيث يتزايد تعقيد العلاقات بين عناصر النظام وتتقدم مظاهر المركزية النفسية وهذا القانون يساعد في ترتيب الظواهر على مستوى اللانهاية الثالثة.

يعتقد "تيار دو شاردان" أن الوعي والتعقيد يعبران عن الواقع ذاته، ذلك أن ارتفاع الكون تجاه التعقيدات العالية جدًا أدى إلى تمركز المادة على طول محور التعقيد. هذا التركيز المفرط يترجم في علم النفس بزيادة العفوية والوعي صوب ما هو صغير Infime وتشتت وكذا صوب اتجاه الهائل أو الكبير Immense والتكتل: أما إذا كان التوجه صوب التعقيد والتركيز centration والوعي، هذا يعني بلوغ الحيوي vitalisation علما أن "تيار دو شاردان" يؤكد على أنه ما دامت الجسيمات شديدة التعقيد منطقيا فإن ذلك يؤدي إلى تمركزها داخليا وهذا دليل على أنها تحمل في طياتها بذرة الوعي بالضرورة، وهذا ما يعبر في قوله: "لكن هل فكرنا بما فيه الكفاية أنه إذا كانت هذه الجسيمات شديدة التعقيد، فمن الضروري أن تكون شديدة التمرکز بشكل مترابط، وبالتالي فهي تحمل بذرة الوعي؟" (Theilhard De Chardin, 1963) فالوعي بهذا الشكل ما هو إلا نتيجة للتنظيم والتعقيد الذي تخضع له المادة بشكل تزايد. ويقول أيضا: "إن ظواهر الوعي التي تنمو على الأرض كنتيجة مباشرة لتنظيم في منتهى التقدم دائما لعناصر تتعقد شيئا فشيئا ومبنية بالتوالي من قبل موارد الكيمياء والحياة". (Theilhard De Chardin, 1959)

هنا تظهر العلاقة الوطيدة بين التعقيد والوعي؛ فكل واحد منهما يستدعي الآخر ويؤدي إليه بالضرورة في مجال تطور الحياة، وبتعبير "تيار دو شاردان": "كلما كان الكائن أكثر تعقيدا، كما يعلمنا جدول التعقيدات كلما زاد تركيبه، بالتالي يمكن أصبح أكثروعيا بعبارة أخرى كلما كان الكائن الحي أكثر تعقيدا كلما كان أكثروعيا وعلى العكس من ذلك كلما كان الوعي أكثر وجودا كلما أصبح أكثر تعقيدا" (Theilhard De Chardin, 1959)

القانون الثالث هو: نمو الوعي: أثناء هذا الارتفاع في التعقيد، يتم تجاوز عتبات معينة تظهر في كل مرة خصائص جديدة بشكل كلي لم تكن موجودة في الحالة السابقة. عندما يصل تجميع الجزيئات العضوية إلى درجة معينة من التعقيد، نلاحظ ظهور ظاهرة نسميها "الحياة". وبالمثل، عندما يصل كائن حي مع الإنسان إلى درجة أعلى من التعقيد، نلاحظ ظهور تفكير تأملي نسميه "الوعي". (Donnadieu, 2022)

6- مستويات الوعي وعلاقته بالتعقيد والتطور:

1.6- ظهور الوعي بزيادة تعقيد الدماغ:

يرى "تيار دو شاردان" أن كل ظهور روحي أو أي تقدم لنظام نفسي يرتبط بترتيب متزايد لتعقيد المادة، وهكذا الترتيب الأكثر تعقيدا للمادة يتمثل في الدماغ البشري (مهد للوعي)، فهذه الزيادة المتواصلة للتعقيد تجعلنا نفترض أن الجسيمات الأولية تتضمن شرارة من الروح. (Pierrat, 2020)

في حين أن ميل الكائن الحي نحو مستويات أعلى من الوعي، يتم حسب المحور الدماغي cérébralisation الذي يعكس التعقيد المتزايد للجهاز العصبي المركزي بطريقة تراتبية تنطلق من الفقرات الأولى إلى الإنسان، ومع دماغ الإنسان الذي يحتوي على مليارات الخلايا العصبية المترابطة وصولا إلى مستوى لا مثيل له في عالم الأحياء، وهو المستوى الذي

مبدأ التّعقيد عند "بيير تياردو شاردارن"

يتسم ببلوغ التفكير التأملي، وبمعنى آخر الوعي والحرية. (Donnadieu, 2022) وبحسب وجهة نظره يعتبر الإنسان آخر الجزيئات التي تكونت، وأكثرها تعقيدا، وفي الوقت نفسه الأكثر عمقا في مركزها (Theilhard De Chardin, 1959) فعلى الرغم من أنّ الإنسان ليس هو الأكبر حجمًا مقارنة بالفيلة والحيتان، فإنّ دماغه يحتوي على ملايين من الخلايا، تضعه في أقصى حد من التعقيد المرتبط بالتنظيم (Thielhard De Chardin, 1957) "ففي الكائنات الحيّة، الدّماغ هو مؤشّر للوعي ومقياسه". (Theilhard De Chardin, 1955) لهذا يعدّ الإنسان أكبر الجزيئات تعقيدا والأكثر تمركزا، ومن ثمة الأكثر وعيا، يقول في هذا الصّدّد: "من الواضح أنّ الإنسان ليس الأوّل لكن، من ناحية أخرى، هناك في داخله بالتّأكيد آلاف الملايين من الخلايا دماغه، حيث وصلت المادة حاليا إلى أقصى حد من التعقيد المرتبط، بهذا التّنظيم المركزي من النّاحية الزّمنية والهيكلية لا شكّ في أنّ الإنسان، في حدود ما نعرف، هو آخر "الجزيئات" التي تشكّلت والتي أضحت الأكثر تعقيدا والأكثر تمركزا في الوقت نفسه".

يصل التّطور مع الإنسان إلى ذروة التعقيد، مصحوبا بالفكر المؤدّي لظهور "الوعي التأملي" وهو ما خصّص له "تيار دو شاردارن" صيغة لتحديد هذه العتبة، فالإنسان -عكس الحيوان- وحده يعرف بأنّه يعرف. إنّ هذه الخطوة من التفكير التأملي ترتقي بالإنسان إلى معالجة الأفكار بطريقة موضوعية وبلوغ درجة الفعالية والمسؤولية. (Giron, 2015) وأنّ هذه القدرة الجديدة أي التفكير التأملي تنبثق منها مجموعة كاملة من الخصائص الجديدة كالحرية، التنبؤ بالمستقبل، والقدرة على التخطيط والبناء وما إلى ذلك. (Theilhard De Chardin, 1959)

لقد كان الوعي بحق السّمة الرئيسيّة التي ميزت مرحلة التطور البيولوجي والتي سمحت للحياة البشرية بالانطلاق نحو التّطور والتّقدم إلى الأعلى. يقول: "منذ مئات الآلاف من السّنين تمكن الوعي من التمرکز، وبالتالي التفكير، في دماغ وصل فيه إلى حد التعقيد العصبي: وكان هذا أوّل تحوّر للحياة على الأرض." (Theilhard De Chardin, 1959)

2,6, الوعي والتنشئة الاجتماعية-الثقافية (مجال النوسفير):

يؤكد "تيار دو شاردارن" على أنّ التنشئة الاجتماعية Socialisation ليست سوى مرحلة عليا في التعقيد وإدراك المحيط الحيوي. (Thielhard De Chardin, 1957) عتبة التفكير التأملي، تأتي العتبة الثانية وهي عتبة التفكير المشترك الذي يطلق عليه بالفرنسية Co-Réflexion.

يقرّ "تيار دو شاردارن" أنّ ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى أنّه يعرف أنّه يعرف، إنه يتأمل لكن هذا التأمل أوّل وجزئي، فلا يستطيع الإنسان الوصول إلى مستوى عال من التأمل والتفكير الدّاتي إلّا من خلال التواصل مع مجتمعه والتفاعل مع الآخرين، يقول في هذا الشأن: "الصّفة الأساسيّة للإنسان، جذر كل تميزاته، هي الوعي من الدّرجة الثانية، ليس الإنسان فقط يعرف، بل يعرف أنّه يعرف، أنّه يتأمل، ومع ذلك في كل واحد منا، هذا التّأمل لا يزال جزئيا، أساسيا، كما لاحظ نيتشه بشكل صحيح، الفرد عندما يكون وحده أمام نفسه، لا يصل إلى النهاية. إنّّه لا يستطيع رؤية ذاته بشكل كامل إلّا من خلال التّقاطع مع الآخرين رغم أنّ التفكير في ذاته وفي بذرته شخصي وغير قابل للتبادل، إلّا أنّه يتطور فقط من خلال التواصل الاجتماعي" (Theilhard De Chardin, 1959) مما يعني أنّ التفكير

بالنسبة لـ "تيار دو شاردان" ظاهرة اجتماعية لأنّ اكتمال الإنسان واكمال مستقبله يتزامن بالتحديد وفق قانون التعقيد مع ظهور ما يسميه بـ "تكييف الإنسان للحياة على كوكب الأرض".

تستمر الإنسانية في التطور والتعقيد حتى بلوغ وعي أكبر لتمثل نموذجا لذلك التطور المستمر الذي يسري على جميع البشر وهو ما يسميه "تيلا دو شاردان" الكوكبية Planétisation حيث يرى "تيار دو شاردان" أنّ تقبل المنظور العضوي والواقعي للظاهرة الاجتماعية يمكن أن يكون مرضا جدا للذكاء ومقوّ للإرادة. (Theilhard De Chardin, 1959) يظهر ذلك بشكل جلي في التطور الاقتصادي والنفسي والحاجة المتنامية للتعاون والعمل المشترك، قد تشكل بداية ظهور كائن جماعي فائق التنظيم يتألف من أفراد. ويرى أنّ: "هذا الهيكل لن يشيء الأفراد وجعلهم أدوات أو يحط من مكانة البشر، بل سيساعدهم بدلا من ذلك على تحقيق مزيد من الوعي بأنفسهم في ظل تعقيد أكبر، يقول "تيار دو شاردان": هذه الشبكة التي تحصرنا أكثر فأكثر من الروابط الاقتصادية والنفسية التي نعاني منها، وهذه الحاجة المتزايدة للعمل والإنتاج والتفكير بشكل متضامن، والتي تثير قلقنا، ماذا سيصبحون فعلا عندما يُنظر إليهم من هذه الزاوية الجديدة؟ إنهم ليسوا إلا الخطوط الأولى للكائن الفائق، الذي بكونه تنظيما يتألف من خيوط أفرادنا، (...) يستعد ليس لتحويلنا إلى آلات وإلى الدّوبان فحسب بل، ليحملنا في كنف تعقيد أكبر إلى وعي أعمق بشخصيتنا. (Theilhard De Chardin, 1959)

إن هذا الاستمرار في التفكير الشامل للبشرية جمعاء هو ما يُسمّى "النّوسفير" باعتبار أن الانسان قد اجتاز خطوة التفكير التأملي ووصل إلى التفكير الثقافي-الاجتماعي Socioculturelle ما أدى بظهور ثلاثة أنظمة: النظام الاجتماعي المعقد، النظام الاصطناعي والنظام الرمزي. (Donnadieu, 2022)

والنّوسفير عند "تيار دو شاردان" هو ذلك الهيكل العضوي الذي يمتد عبر الأرض ويتكون من جميع الكائنات الفكرية. يبين "تيلا دو شاردان" أنّ التطور التدريجي ينحو نحو نقطة حيث يكون الوعي البشري على أعلى مستوى ممكن، مما يدفع بالبشرية نحو التواصل والتفاعل بشكل أعمق وأكثر تعقيدا، وينقلها إلى مستويات جديدة من الوعي والتفكير الجماعي، يقول: " من خلال تكثيف وتنظيم الجزئيات الفكرية، يميل التطور نحو تحقيق نفسه، وهو يسعى لنقل نسيج الكون، وفقا لمسار يجب علينا الآن محاولة تحليله، نحو ظروف تعكس التفكير الكوني الفائق. فإذا كان الإنسان حقا، من خلال التّجمع الاجتماعي مستمرا في التّحرك نحو الوعي الأعظم إلى أي مدى (بمدى التسارع الحالي) سنصل بعد مئات الآلاف من السنين؟" (Theilhard De Chardin, 1973)

3.6. نقطة أوميغا:

يرى "تيار دو شاردان" أنّ التطور الاجتماعي الذي بلغه الإنسان قد أدّى إلى اكتسابه قدرة التحكم في نموه بشكل أكثر توجيها وتنظيما، مما يعني أن الإنسان أصبح قادرا على تغيير ذاته وتشكيلها بشكل جديد كما يرى أن التفكير والحرية قد يؤديان إلى توجهات غير متوقعة في التطور البشري. ولكن "تيلا دو شاردان" يقترح اتّجاها محددا يتجه نحوه التّنوع البشري الذي يتمثل حسب وجهة نظره في: التوحيد، التركيز، الروحانية ثمّ أخيرا نحو نقطة تلاقي نهائية، ويسمي هذه

مبدأ التّعقيد عند "بيير تيار دو شاردان"

النقطة بـ "نقطة أوميغا" كنقطة حاسمة في تطور التاريخ البشري. إنّه يتوقع بلوغ الإنسان أقصى مراحل الوعي والتّفكير الجماعي.

يربط "تيار دو شاردان" هذا الانطباع بتفكيره في النمو التّطوري للبشرية، معتقداً أن الاندماج الاجتماعي والتّقدم التّكنولوجي يقوداننا نحو مستقبل سيتمتع الإنسان بقدرات أعلى من الوعي والتّوجيه الذاتيّ. هذا التّطور سيؤدي في النّهاية إلى نقطة تحول حاسمة تمثل نهاية لحدود التّطور البشري المعروفة، ويفترض أنّ الفكر البشري سيصل في ذلك الوقت إلى ذروة تطوره وتوحده في "نقطة أوميغا" حيث يصبح الإنسان مدركاً بشكل كامل لذاته ولعالمه ومسؤوليته في الكون، يقول: "إذا كانت الظّاهرة الاجتماعية للإنسان في الواقع ليست سوى أعلى شكل يأخذه التّعقيد الكوني لنفسه على الأرض، فإذا كانت الأمور مستعدة تدريجياً من خلال إنشاء وعي مشترك والذي بدأ بالفعل في علوم متعددة لإنشاء رؤية كونية، تكون مشتركة لكل الوعي البشري، يجب أن نعترف بأن الاحتمال يتزايد بسرعة نحو ظهور نقطة حرجة للنضج حيث يكون الإنسان، بعد أن يصبح مدركاً تماماً، ليس فقط على المستوى الفردي، ولكن على المستوى الجماعي، لنفسه، قد وصل على محور التّعقيد، وهذا على أقصى تأثير روعي إلى حدود العالم. وفي ذلك الوقت، إذا كنا نريد أن نعطي معنى واستمرارية للتّجربة، يبدو أنه لا يمكن تجنب التّفكير في هذا الاتجاه، للفصل في هذه الظّاهرة، عند ظهور الفكرة النّهائية للفكر الأرضي فيما أسميته نقطة أوميغا" (Theilhard De Chardin, 1973)

ويقصد "تيار دو شاردان" بـ "نقطة أوميغا" قطب نهائي للوعي يتفاعل مع الكون بطريقة مستقلة وتفاعلية. يتميز هذا القطب بالقدرة على جمع العناصر الكونية وترتيبها بطريقة تجمعها في مركزية قصوى. وعلى الرّغم من عدم القدرة على إدراكه مباشرة إلّا أنّ وجوده يتبادر بالضرورة نتيجة لمجموعة من الأسباب الحاسمة وهي: اللارجعية *irréversibilité*، القطبية *polarité*، الوحدة *unanimité* يقول: "لقد قصدت بهذا الاسم "أوميغا" ومنذ وقت طويل، وسأظل أكرّرها أيضاً هنا، قطبا نهائياً ومستقلاً للوعي، متشابكاً بما فيه الكفاية مع العالم ليتمكن من جمع العناصر الكونية المترابكة في أقصى درجات تمركزها من خلال الترتيب التقني -أن يكون قادراً- بفضل طبيعته الفوق تطورية على الهروب من التراجع المحتوم الذي يواجه أي بنية متكونة من مواد مكونة من الزمان والمكان. من الطبيعي، ومن خلال التعريف، أن مثل هذا المركز لا يمكننا إدراكه مباشرة. ولكن إذا لم يمكننا تحديد وجوده أو تأثيره مباشرة، فإن وجوده لثلاثة أسباب على الأقل، يبدو حتمياً مفروضاً." (Theilhard De Chardin, 1973)

يرى "تيار دو شاردان" أنّ نقطة أوميغا تلعب دوراً محورياً في التطور الكوني، حيث تمثل نقطة الجاذبية التي تجذب التطور نحو التوحيد والاتحاد. يعتقد "تيار دو شاردان" أن هذه النقطة تؤثر على التطور. (Donnadieu, 2022)

إن تطور البشرية وتوجهها نحو الأوميغا الذي -يعتبر في مفهومه الفلسفي واللاهوتي- يعتمد على التأمل الفائق والقبول للحب الإلهي. وبناء على هذا التأمل والقبول، يصبح المسيح شخصية ذات بعد كوني يعتمد عليه في تطوير الإنسانية نحو المزيد من الكمال والوحدة. (Donnadieu, 2022)

ينظر "تيار دو شاردان" إلى نقطة أوميغا كمركز للجاذبية الشاملة لعملية التطور، حيث تأتي الغاية من التطور من هذه النقطة. يقترح أن هذه النقطة الأوميغا التي يراها موجودة بالفعل، تلعب دورا في جذب وتوجيه التطور نحو مستقبل مشرق، وتؤثر في جميع مستويات التنظيم والواقعية للحياة. (Donnadieu, 2022) إنها تتدخل بشكل متجاوز الأسباب الطبيعية دون أن تتداخل معها. فيمكن أن تتواصل الأوميغا مباشرة من روح إلى روح بمجرد أن يحصل الكون - من خلال الإنسان- على الوعي المفكر وتشكل المسيحية لـ "تيار دو شاردان" الشكل الأكثر اكتمالا. (Donnadieu, 2022) فالإنسان الفائق يبلغ ذروته في "نقطة أوميغا" التي يرى فيها "تيار دو شاردان" شخصية المسيح الكونية، ومن ثم فإن العتبة الحرجة النهائية تكون خطوة التفكير الفائق ultra-réflexion (Donnadieu, 2022) التي تمثل الجزء المتصالح réconcilié من الإنسانية، بمعنى الجزء الذي غمره الحب الإلهي في أوميغا المتماثل مع المسيح الذي سيتعين عليه بعد ذلك أن يتخذ بعدا كونيا يجعله يبدو أعظم بكثير. (Donnadieu, 2022)

ومع كل خطوة في هذا التعقيد يزداد الوعي التنظيمي معها، فقد أدرك "تيار دو شاردان" أن الحياة الأرضية لا تتوقف أبدا على تجسيد مبدأ التعقيد الذي يتجه نحو التقارب والكمال والوحدة في "نقطة أوميغا"، كما يقول "تيار دو شاردان": "إنه المصطلح الأعلى للتأمل البشري المشترك (أي الاجماع في الواقع l'unimisation) وهو اسم "نقطة أوميغا"، إنه الكون المشخص للتوحيد والاتحاد" (Theilhard De Chardin, 1973) وهكذا، فإن نقطة أوميغا نقطة تمثل حسب وجهة نظر "تيار دو شاردان" قمة التعقيد وقمة الوعي في المخلوقات.

خاتمة:

قدّم "تيار دو شاردان" نظرة جديدة لتفسير أصل الكون والحياة من خلال مبدأ التعقيد؛ فتكوّن المادة، نشأة الكون، ونشأة الحياة وتطورها بمختلف أشكالها وأنواعها من البكتيريا والفيروسات إلى النباتات والحيوانات وصولا إلى الإنسان ما هي في الحقيقة إلا مرحلة من المراحل تعقيد العناصر الأولى وتنظيمها. هذا التعقيد موجّه لبلوغ مزيد من الوعي الذي يكون في البداية غير محسوس، لكن مع تطور المادة، تعقدها وتنظيمها المستمر يظهر شيئا فشيئا بوضوح في تشكّل الدماغ لينضج أكثر مع التنشئة الاجتماعية أي ظهور ما يسمى بالتأمل أو التفكير الاجتماعي الذي يؤدي بدوره إلى تنامي وتزايد تعقيد المجتمعات بما فيها الأمم والحضارات، كما أنّ التشارك في التفكير يخلق ما يسمى بالوعي الكوكبي، والذي قد يصل مع تنامي التفكير إلى التفكير الفائق، الذي يتعلّق بـ "نقطة أوميغا". وما توصلنا إليه هو أن المعقد مركّب لأنّ المعقد يتضمن مجموعة من العناصر لكن المركب ليس معقدا فليس كلّ مركّب معقد، فالمركب قد تكون عناصره مشوشة غير منظمة ولا يوجد تفاعل ولا تشكل علاقات مرتبة مفهومة لها معنى بين تلك العناصر المركبة. والتنظيم والتفاعل من خصائص التعقيد.

هذه هي الثورة التي فجّرها "تيار دو شاردان" في مجال الفلسفة والعلم والدين على حدّ سواء خلال الكشف عن مبدأ ثابت، مبدأ "التعقيد" الذي أصبح خطوة رئيسية لتكوين تصوّر وفهم شامل ومعّمّق لنشأة الكون وظهور الحياة وتطورها بشكل مستمر.

أندريه، ل.، (2001). موسوعة الفلسفة، المجلد الأول، تر. خليل، أ.، بيروت - باريس: منشورات عويدات.

Académie Française. (1978). Dictionnaire de l'Académie française. 5^{ème} éd. Paris: Edition e Books.

Baudry. (2009). Dictionnaire Thélhard de Chardin. Paris: Aubin éditeur.

Blay M., (2003). Le grand dictionnaire. (C. éd., Éd.) Paris: Larousse.

Cuénot C., (1963). Lexique Thilhard de Chardin. Paris: Le Seuil.

Donnadieu G., (2022). Une lecture chrétienne de l'évolution d'après la vision actualisée du Theilhard De Chardin. Consulté le 08 2022, 18, sur www.eleves.ens.fr.

Giron H., (2015). Theilhard Visionnaire d'un monde en évolution : Big-Bang à la Noosphère. Theilhard Visionnaire d'un monde en évolution : Big-Bang à la Noosphère. Consulté le 07 31, 2022, sur <http://www.ac-Osciences-lettres-montpellier.fr>

Pierrat B., (2020). Teilhard de Chadrin et la place de l'homme dans l'évolution. Consulté le 06 12, 2020, sur <https://www.teilhard.fr>

Theilhard De Chardin P., (1973). Les Directions de L'avenir. Paris: Editions du Seuil.

Theilhard De Chardin, P. (1965). La Place De L'Homme Dans la nature, (Le Groupe Zoologique Humain). Paris: Union générale des éditions.

Theilhard De Chardin P., (1963). L'activation de l'énergie. Paris: Edition du Seuil.

Theilhard De Chardin, P. (1959). L'Avenir de l'Homme: Edition du Seuil.

Thielhard De Chardin P., (1957). La vision du passé. Paris: Editions du Seuil.

Theilhard De Chardin, P. (1955). Le phénomène humain Paris: Edition le Seuil.